ثقافته

ألسنةُ الخلق أقلام الحقِّ...

كلمة سائغة ليس أصدق منها أن صدقت، وهى صدق في كثير من الأحيان ..

ولن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع كلمةً من هذه الكلمات التي ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل، فيخيَّل إلينا أنَّها خاطر عابر يسمح ويستملح ويشفع له القدم...

فتقبله كرامة له كما نقبل الثمين والغثَّ أحيانًا من وقار المشيب، ولكنَّه بعد كلِّ هذا لا يثبت إلى النقد ولا يصبر على مراجعه العلم والقياس، ثمَّ نعرضه اتفاقًا على العلم والقياس...

فإذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء، وإذا بالأخطاء في هذه القولة الشائعة أو في هذا اللقب المرتجل أقلُّ من كلِّ خطأ يحصى على كلام مخلوق.

من هذه الألقاب الشائعة، لقب الإمام الذي اخُتصَّ به عليٌّ بين جميع الخلفاء الراشدين، والذي يطلق إذا أطلق فلا ينصرف إلى أحد غيره، بين جميع الأئمةِ الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه...

ولم وليس هو بفرد في الإمامة بجملةِ معانيها؟..

ألم يكن الصدِّيق إمامًا كعليٍّ؟...

ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوَّه؟

بل كانوا أئمَّة وسبقوه في الإمامة.

ولكن الإمامةَ يومئذٍ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل على الإمامه ليناضل به علم الدولة الدنيوية، ولا أن يتحيَّز بعسكر يقابله عسكر، وصفة تناوئها صفة، ولا أن يصبح رمزًا للخلافةِ يقترن بها ولا يقترن بشيءٍ غيرها.

فكلُّهم إمام حيث لا اشتباهَ ولا التباس، ولكنَّ الإمام بغير تعقيب ولا تذييل هو الإمام كلَّما وقع الاشتباه والالتباس.

وذاك هو عليٌّ بن أبي طالب، كما لقَّبه الناس وجرى لقبه على الألسنةِ. فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومةَ في الطرقات، بغير حاجه إلى تسمِّيةٍ أو تعريف.

******

وخاصة أخرى من خواص الإمامة، ينفرد بها عليٌّ ولا يجاريه فيها إمام غيره وهي اتِّصال بكلِّ مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذُ وجدت في صدر الإسلام فهو منشئُ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه.

وندرت فرقةٌ في الإسلام لم يكن عليٌّ معلمًا لها منذ نشأتها، أو لم يكن موضوعًا لها ومحورًا لمباحثها. تقول فيه وتردُّ على قائلين.

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة. وعلماء الأدب والبلاغة. فهو أستاذ هؤلاء جميعًا بالسند الموصول.

أما الفرق التي جعلته موضوعًا لها ومحورًا لمباحثها فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنة.

فتكون قد ذكرت جميع الفرق الإسلاميةِ بلا استثناء أو باستثناء جدٍّ يسير وهنا تتشبك الفروع وتتاشبك الأفانين، فترى الفرقةَ الواحدةَ مزيجًا من التصوُّف والسياسةِ.

كالباطنية على اختلافها.

وقد تترامى بها الفروع حتَّى تصل إلى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء وهم طرف مقطوع أو موصول من تلك الأصول فالإمام أحق لقب به، وهو أحق الأئمةِ بلقب الإمام ولقد كانت له آيةٌ من آيات الشهداء في كثير من صفاته.. وكثير من معارض حياته، وطوارئ أوقاته.

وكانت له في الإمامةِ آيةٌ أخرى من الآيات.

فآية الشهداء أنَّهم يبخسون حقهم في الحياةِ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات.

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا في إقبالها وإدبارها، كما قال الإمام رضيَ الله عنه: "إنَّها إذا أدبرت عن إنسان سلبته محاسن نفسه، وإذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره" وكذلك اتفق للإمام في صفةِ الإمامةِ كما اتَّفق له في معظم الصفات.

فقلَّ إن سمعنا بعلم من العلوم الإسلاميةِ أو العلوم القديمةِ لم ينسب إليه، وقلَّ أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه إيَّاه وقلَّ أن توجَّه الثناء بالعلم إلى أحَدٍ من الأوائل إلا كانت له مساهمه فيه.

نحلوه ديوانًا من الشعر فيه عشرات من القصائد وليس بينها إلَّا عشرات من الأبيات تصحُّ نسبتها إليه.

ونحلوه علمًا سموه علم "الجفر" وزعموا أنَّه علم النجوم والأبراج الذي يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان.

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف، ولا يعقل أن تظهر أشباه المقامات قبل عصر الصناعةِ في أيام العباسيين وما تلاها.

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالًا لم تعرف ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحو والاشتقاق.

وبعض ما نحلوه يزيده قدرًا ويرفعه شأنًا، إلَّا تصحُّ نسبته إليه؟

وبعض ما بقي له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه كافٍ لتعظيم قدره وإثبات إمامته في عصره وبعد عصره.

وعندنا أنه رضي الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلةِ والتفضيل على حسب المذاهب، ومن بصره بوجوه المقابلةِ بينهم أنَّه سئل: "من أشعر الناس".

قال: "إن القوم لم يجروا في حلقةٍ تعرف المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب".

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب "المدارس" والأغراض الشعريةِ بين العرب.

فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب.

لكنَّه رضي الله عنه لم يرزق ملكةً إلَّا جاده في شعره، والنبيُّ عليه السلام يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعليٍّ في هجاء المشركين.

فقال: "ليس بذاك وأحالهم إلى حسان بن ثابت، وندب له من يبصره بمثالب القوم".

وكلُّ شعره الذي رجحت نسبته إليه من قبيل هذه الأبيات التي وصف بها قبيلة همدان في وقعه صفين:

وَلَمّا رَأَيتُ الخَيلَ تَقرَعُ بِالقَنا
فَوارِسها حُمرُ العُيونِ دَوامي
وَأَقبَلَ رَهجٌ فِي السَماءِ كَأَنَّه
غَمامَةُ دَجنٍ مُلبَسٍ بِقُتامِ
وَنادى اِبن هِندٍ ذا الكِلاعِ وَيَحصُباً
وِكِندَةَ في لَخمٍ وَحَيِّ جُذامِ
تَيَمَّمتُ هَمدانَ الَّذينَ هُمُ هُمُ
إِذا نابَ أَمرٌ جُنَّتي وَحُسامي
وَنادَيتُ فيهِم دَعوَةً فَأَجابَني
فَوارِسُ مِن هَمدانَ غَيرُ لِئامِ

فَـوارِسُ مِـن هَمـدانَ لَيـسوا بُعُـزَّلٍ
غُـداةَ الـوَغى مِـن شـاكِرٍ وَشـبامِ
وَمـن أَرحَـبَ الـشَمَّ المطـاعينَ بِالقَنـا
وَرَهُـمٌ وَأَحيـاءُ الـسَبيعِ وَيـامِ
وَمِـن كُـلِّ حَـيٍّ أَتَتنـي فَـوارِسٌ
ذوُو نَجَـداتٍ في اللِقـاءِ كِـرامِ
بِكُـلِّ رَدينـيٍّ وَعَـضبٍ تَخالُـهُ
إِذا اِختَلَـفَ الأَقـوامُ شَـعَلَ ضِرامِ
فَخاضـوا لَظاهـا وَاصـطَلوا بِـشَرارِها
وَكـانوا لَـدى الهَيجـا كَـشَربِ مُـدامِ
جَـزى اللهُ هَمـدانَ الجِنـانَ فـإِنَّهُم
سِـهامُ العِـدى في كُـلِّ يَـومٍ خِـصامِ
لِهَمـدانَ اَخـلاقٌ وَديـنٌ يَـزينهُم
وَلـينٌ إِذا لاقـوا وَحُـسنُ كَـلامِ
وَجَـدٌّ وَصِـدقٌ في الحُـروبِ وَنَجـدَةٌ
وَقَـولٌ إِذا قـالوا بِغَـيرِ إِثـامِ
مَتـى تَـأتِهِم في دارِهِـم لِـضيافَةٍ
تَبِـت عِنـدَهُم في غِبطَـةٍ وَطَعـامِ

أَلا إِنَّ هَمــــدانَ الكِــــرامَ أَعِــــزَةٌ
كَــما عَــزَّ رُكــنُ البَيــتِ عِنــدَ مَقــامِ
أَنــــاسٌ يُحِبّــــونَ النَبــــيَّ وَرَهطَــــهُ
سِراعٌ إِلى الهَيجــــاءِ غَــــيرَ كَهــــامِ
فَلَــو كُنــتَ بَوّابــاً عَــلى بــابِ جَنَــةٍ
لَقُلــتُ لِهَمــدانَ اِدخلــوا بِــسلامِ[1]

أو من قبيل هذه الأبيات:

مُحَمَــدٌ النَّبــيُّ أَخــي وَصِــهري
وَحَمــزَةُ سَــيِّدِ الــشُهداءِ عَمّــي
وَجَعفَــرٌ الَّــذي يُــضحي وَيُمــسي
يَطــيرُ مَــعَ المَلائِكَــةِ اِبــنَ أُمّــي
وَبِنــتُ مُحَمَّــدٍ سَــكَني وَعُــرسي
مَــشوبٌ لَحمُهــا بِــدَمي وَلَحمــي
وَســبطا أَحَمــدٌ وَلَــداي مِنهــا
فَمَــن مــنكم لَــهُ سَــهمٌ كَــسَهمي
سَــبَقتُكُمُ إِلى الإِســلامِ طُــرًّا
غُلامــاً مــا بَلَغَــتُ أَوانَ حلمــي

(١) الأبيات من الطويل في ديوانه..

أَنـــا البَطَـــلُ الَّـــذي لَـــن تُنكِـــرَوهُ
لِيَـــومِ كَريهَـــةٍ وَلِيَـــومِ سِـــلمِ
وَأَوجَـــبَ لي وِلايَتَـــهُ عَلَـــيكُم
رَســـولُ اللهِ يَـــومَ غَـــديرِ خَـــمٍّ[1]

وقد نظم شعرًا ولا ريب، كما يدل سؤالهم النبيَّ عليه السلام أن يأذن له ما في هجاء من هجاهم، ولم ينسب إليه شعر صح أو لم يصحَّ، أجود مما قدمناه.

وليس فيه ما يسلكه بين المجودِّين من الشعراء، أو يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء.

أما كتاب الجفر أو علم الجفر، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل في جميع ما نحلوه وأضافوه إليه..

فمثل عليٍّ في تقواه وفضله، لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه، وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه.

وقد نهى وشدَّد النهيَ عن تعلُّم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم، ومن المحقَّق الذي لا خلجةَ فيه من الشكِّ عندنا أنَّ النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجَّاج بن يوسف وفتنةِ الزَّنج وغارات التتار وما إليها، هي من مدخولِ الكلام عليه.

---

(١) الأبيات من الوافر في ديوانه..

ومما أضافه النسَّاخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل.

ولا نجزم مثل هذا الجزم في أمر المقامات التي خلت من بعض الحروف؛ لأن العقل لا يمنعها قطعًا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من أزياج النجوم.

ولكننا نستبعد جدًّا أن تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن، وحاجة النسبة هنا إلى سَنَدٍ أقوى من السَّند الميسر لنا بكثير.

****

وكذلك نستبعد أنَّه قال لكتابه ليظهر علمه بغريب اللغة: "ألصق روانفك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجل حندورتيك إلى قيهلي حتى لا أنفي نفيةً إلا أودعتها بحماطة حلجلانك"

أي: "ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بين أصابعك واجعل عينيك إلى وجهي حتى لا ألفظ بلفظةٍ إلا وعيتها في سواد قلبك".

فإن الولع بإظهار العلم بالغريب بدعةٌ لم تعرف في صدر الإسلام، ولم يلتفت الناس إلى ادِّعائها إلا بعد استعجام العرب وندرة العرفين.

ومثل هذا ما نسبوه إليه حيث زعموا أنه قال: "ماتربعلبنت قط" أي: ما أكلت السمك يوم السبت..

"وما تسرولقمت قط" أي: ما لبست السراويل قائمًا...

إلى أشباه هذه المخترعات التي تستغرب لفظًا ومعنى واعتقادًا من رجل كان الإمام في صدر الإسلام.

إلا أننا نسقطها جميعًا، فلا نسقط بها فضلا ترجح به موازيين الإمام في حساب الثقافة..

بل نحسبها فضلًا -إن شئنا- ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح تلك الموازيين..

تبقى له الهداية الأولى في التوحيد الإسلامي، والقضاء الإسلامي، والفقه الإسلامي، وعلم النحو العربي، وفنّ الكتابة العربية، مما يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام.

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية على تباين العصور.

ففي كتاب نهج البلاغة، فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع بها دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمه التوحيد.

وربما تشك الباحث في نسبة بعضها إلى الإمام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التي اقتبست بعد ذلك من ترجمه الكتب الأغريقية والأعجمية، ولاسيِّما الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات، ولكن الذي يقرؤه الباحث ولا يشكُّ في نسبته إلى الإمام أو في جواز نسبته إليه، قسط وافٍ، لتحقيق رأي القائلين بسبق الإمام في مضمار علم الكلام واعتراف المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكلِّ من لحق به من أصحاب

الآراء والمقولات وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربَّه وينزه به الخالق في كماله، ومن أمثلته قوله: " الحمد للذي لا يسبق له حال حالًا. فيكون أولًا قبل أن يكون آخرًا، ويكون ظاهرًا قبل أن يكون باطنًا. كل مسمًّى بالوحدةِ غيره قليل، وكلُّ عزيز غيره ذليل، وكل قويٍّ غيره ضعيف، وكل مالك غير مملوك، وكلُّ عالم غيره متعلِّم، وكلُّ قادر غيره يقدر ويعجز، وكلُّ سميع غيره يصمُّ عن لطيف الأصوات ويصمُّه كبيرها. ويذهب عنه ما بعد عنها وكل بصير غيره يعمى عن خفيِّ الألوان ولطيف الأجسام. وكل ظاهر غيره باطن، وكل باطن غيره ظاهر لم يخلق من خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان. ولا استعان على من شاور. ولا شريك مكاثر ولا ضدّ منافر ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون -أي ضارعون- لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن. ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن، لم يؤوده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ ولا وقف به عجز عما خلق. ولا ولجت عليه شبهةٌ فيما مضى وقدر. بل قضاء متقن. وعلم محكم وأمر مبرم"...

أمَّا القضاء والفقه فالمشهور عنه أنه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة.. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه أو أفقه وأقدر على إخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور.

وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسألةً من مسائل القضاء العويصةِ: "قضية ولا أبا حسن لها" لأنه كان في هذه المسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع كلَّما وجب الاجتهاد بالرأي الصائب والقياس الصحيح..

وفى أخباره، ما يدلُّ على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصهِ وأحكامه ومن هذه الأدوات علم الحساب الذي كانت معرفته به أكثر من معرفه فقيه يتصرف في معضلات المواريث؛ لأنه كان سريع الفطنة إلى حيله التي كانت تعدُّ في ذلك الزمن ألغازًا تكدُّ في حلها العقول، فيقال أنَّ امرأة جاءت إليه وشكت إليه أخاها مات عن ستمائة دينار، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحدٍ... فقال لها: لعله ترك زوجةً وابنتين وأمًّا واثني عشر أخًا وأنت؟ فكان كما قال.

وسئل يومًا في أثناء الخطبة عن ميِّت ترك زوجةً وأبوين وابنتين. فأجاب من فوره: صار ثمنها تسعًا وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة..

وفى هذه الإجابات، دليل على الذكاء وسرعة البديهة.. فضلًا عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب.

وإذا قيل في قضائه أنَّه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه، صحَّ أن يقال في علم النحو أنَّه لم يكن أحد أوفر سهمًا في إنشاء هذا العلم من سهمه وقد تواتر أنَّ أبا الأسود الدؤلي شكا إليه شيوع اللحن على ألسنة العرب، فقال له: اكتب ما أملي عليكَ، ثمَّ أملاه أصولًا منها: "أنَّ كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمَّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمَّى، والحرف ما أنبأ عن معنًى ليس باسم ولا فعل. وأن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر... وإنما تتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر يعني اسم الإشاره على القول بعض النحاة.

ثمَّ قال لأبي الأسود: انح هذا النحو يا أبا الأسود. فعرف العلم باسم النحو من يومها.

وهذه روايةٌ تخالفها روايات شتَّى تستند إلى المقاربة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية، ولاسيِّما السريانية واليونانية ولكن الروايات العربية لا تنتهي بنا إلى مصدر أرجح من ذا المصدر، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلًا أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربيِّ من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التي تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام وهم هنالك غير قليل، ولاسيِّما السريان الذين سبقوا إلى تدوين نحوهم، وفيه مشابهةٌ كبيرةٌ لنحو اللغة العربية.

وليس الإمام على أول من كتب الرسائل، وألقى العظات وأطال الخطب على المنابر في الأمَّة الإسلامية.

ولكنَّه لا ريب أوَّل من عالج هذه الفنون معالجه أديب ، وأول من أضفى عليهم صبغةَ الإنشاء الذي يقتدى به في الأساليب؛ لأنَّ الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلِّغين لا صياغة منشئين، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فنِّ الأداء وصناعة التعبير، ولكنَّ الإمام عليًّا تعلَّم الكتابة صغيرًا ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهةِ الأولى إلى طور التفنن والتجويد.. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع، هو فيما نرى أُسلوب أساليب الإنشاء الفنِّي في اللغةِ العربيةِ، وأوَّل أسلوب ظهرت فيه آثار دراسةِ القرآن والاستفادة من

قدرته وسياقه، وتأتي له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولةِ البداوة ومن تهذيب الحضارة، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية... فديوانه الذي سمى "نهج البلاغة" أحقُّ ديوان بهذه التسمية بين كتب العربيةِ واشتماله على جزءٍ مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح الدلالة على أسلوبه، وربَّما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الإقناع من دلالةِ الأسانيد التاريخية، لأن طابع الشخصية العلوية فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف، يوحي إليك حيثما وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحدًا غير الإمام ويعزُّ عليك أن تلمح فيه غرابةً بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام على أننا نبالغ ما نبالغ في تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الأمام ومن فنون ثقافته العامة، ثمَّ تبقى لنا بقيَّةٌ تسمح لنا -بل توجب علينا- أن نسأل: كيف يتسنَّى العلم بهذا لأيِّ كان من الناس في مثل ذلك الزمان؟...

والسؤال لابدَّ منه. ولا نظن قارئًا من قرَّاء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه ولكن لابدَّ معه من تصحيح الجواب عنه بعد ذلك..

فالباعث عليه أننا نبالغ في تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين.

لكنَّ البداوةَ العربيةَ لم تكن في الواقع معزولة عن ثقافةِ الأمم المحيطةِ بها تلك العزلة التي تخطر لنا للوهلةِ الأولى، فقد كانت على

اتصال بعقائد الهند وفارس والروم، وكانت للمعارف الإنسانية أشعتها التي تتخلَّل الجزيرةَ العربيةَ من قديم العصور.

وحسبنا من أمثله ذلك،مثال واحد في معسكر الإمام نفسه يغني عن الأمثلة من سبيله:

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، وهو يهوديٌّ ابن زنجية مولود في بلاد اليمن، ومذهبه الذي اشتُهِرَ به هو مذهب الرجعة الذي يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود وقول أهل الهند بظهور الإله الذي يتقمَّص جسم الإنسان وقول النصارى بظهور المسيح، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياءِ من أقرباء الملوك والأمراء..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يمنيٍّ من أهل الجزيرة، إذا تخيلنا أن الجزيرة في حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبني إسرائيل، وإنَّ الأمَّةَ العربيةَ تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية أو طريق المحاكاة الاجتماعية، أو طريق الدراسة والسماع وقد كانت عاصمة الإمام في الكوفة وكانت بمثابة الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة في العالم بأسره ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو جوارها الحضارات المعروفة في العالم بأسره، ومن المسلمين الذين عاشوا أو بجواره الناس كانوا ينظرون في كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء في سيرةِ عمر بن الخطاب، ومنها من كان ينظر في النجوم على طريقة الفرس والروم، وحذر بعض هؤلاء الإمام أن يسير إلى الحرب الخوارج في طالع كوكب من كواكب

المنحوسة، فقال له: "أتزعم أنك تهدي إلى الساعي التي من سار فيها صُرف عنه السوء؟ فمن صدق بهذا فقد كذَّب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه".

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة. قائلًا: "إياكم وتعلم النجوم، إلَّا ما يهتدى به في برٍّ أو بحر.. فإنها تدعوا إلى الكهانةِ، والمنجم كالكاهن، و الكاهن كالساحر، والساحر كالكافر،والكافر في النار".

وقد لبث عليٌّ ابن أبي طالب زهاء ثلاثين سنةً متقطعًا أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة، متفرِّغًا أو يكاد يتفرَّغ لفنون البحث والدراسة.. يتأمل كلَّ ما سمع، ويراجع كلَّ ما قرأ، ويعرف كل ما يعرف، ممن يلقاه، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه..

فقيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الإمام، وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام.

على أنَّ هذه الفنون من الثقافة أجلتها -إنَّما تعظم بالقياس إلى عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها.. فحصَّة الإمام من علم النحو مثلًا- عظيمة لأنَّ الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلَّدات الضخام التي دوَّنها النجاة بعد تقدُّم العلم وتكاثر الناظرين فيه.

وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر. وهي في ابتدائها أصعب جدًّا منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها.

******

أما فن الثقافة الذي يقاس بمقياس الزمن، فإذا هو عظيم في جميع هذه المقاييس، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات، فذلك هو فنُّ الكلم الجامعة أو إفراد الحكمة التي قلنا آنفًا أنَّها تسجل له في ثقافة الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة الأمم العامَّة كما تسجل له في ثقافة الأمَّة الإسلامية، على تباين العصور.

فالكلم الجوامع التي رويت للإمام طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرةِ.

وقد قال النبيُّ عليه السلام: "علماء أمَّتي كأنبياء بني إسرائيل".

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام عليٍّ في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء.

فهي من طراز الحكم المأثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سلمان ابن داوود.

ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير، وأوفر نصيبًا من ذوق الجمال، كقوله مثلًا: "نفس المرء خطاه إلى أجله". أو قوله: "من يعطِ باليد القصيرة يعطَ باليد الطويلة". أو قوله: "المرء مخبوءٌ تحت لسانهِ". أو قوله: "الحلم عشيرةٌ" أو قوله: "من لان عُوده كَثفت أغصانه". أو قوله: "كلُّ وعاءٍ يضيق بما جُعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتَّسع".

إلى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي تحار فيها أمزاياها أفضل وأقومُ أم صدق المعنى، أو بلاغة الأداء، أو جودة الصناعة..

وبعض أقواله ينضح بدلائل "الشخصية" التي تلازم صاحب الفنِّ الأصيل فتلبس معانيه لباسًا من خوالج نفسه وأحداث زمانه، كما قال: "صواب الرأي بالدول يقبل بإقبالها ويذهب بذهابها".

أو كما قال: "ما أكثر العبر وأقلُّ الاعتبار".

أو كما قال: "شاركوا الذي أقبل عليه الرزق فإنَّه أخلق للغنى وأجدر بإقبال الحظِّ عليه".

أو كما قال: إذا هبت أمرًا فقع فيه، فإنَّ شدَّةَ توقِّيه أعظم مما تخاف منه".

أو كما قال: "لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطاعم".

وله عدا هذه الحكم التي تلونت ألوان نفسه أو ألوان زمانه، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها وتنفذ إلى كل سامع يفطن لها كقوله: "كلُّ معدود منقضٍ وكلُّ متوقَّع آتٍ".

أو قوله: "إذا كثرت القدرة قلَّت الشهوة".

أو: "أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه".

أو قوله: "من نصَّب نفسه للناس إمامًا فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلِّم نفسه ومؤدِّبها أحقُّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدِّبهم".

أو قوله: "الفقيه كلُّ الفقيه من لم يقنط الناس من رحمه الله ولم يؤنسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله".

أو قوله: "الصبر صبران: صبر على ما تكره وصبر على ما تحبُّ".

أو قوله: "من ملك استأثَرَ".

أو قوله: "الناس أعداء ما جهلوا".

أو قوله: "القرابة إلى المودَّة أحوج من المودَّةِ إلى قرابةٍ"....

وله في المواقف كلمات هي أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة..

فلما خرج وحده لبعض المهام التي تردَّد فيها أنصاره، قالوا له يشيرون إلى أعدائه: يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم. فقال: "ماتكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيرَكُم؟ إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعايتها، وإنَّني اليوم لأشكو حيف رعيَّتي. كأنني المقود وهم القادة، أو الموزوع وهم الوزعة".

ورثى محمد بن أبي بكره حين بلغه مقتله على أيدي أصحاب معاوية فقال: إنَّ حزننا عليه قدَر سرورهم به، إلَّا أنَّهم نقصوا بغيضًا ونقصنا حبيبًا".

فكلُّ نمط من أنماط كلامه، شاهد له بالملكة الموهوبة في قدرةِ الوعي وقدرةِ التعبير. فهو ولا شكَّ من أبناء آدم الذين عُلِّموا الأسماء وأُتوا الحكمة، وفصل الخطاب.

وقد أخطأ "موير" المؤرخ الإنجليزي حين قال أنَّ عليًّا حكيم كسليمان وهو مثله حكمته لغيره.. يعني أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة، فإن "موير" أحجى أن يفرق بين عمل الإنسان بنصحه وبين

انتفاعه بنصحه. ولاشكَّ أنَّ عليًّا كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس. أمَّا إنَّه ينتفع بحكمته، فالطبيب لا يقدح في علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبِّه. فقد يكون الإخفاق من استعصاء الداء لا من صحَّة الدواء.

*****

ولا يفوتنا أن بعض هذه النصائح، قد نُسب إلى قائله من الأوائل غير الإمام رضي الله عنه، وهذا يستطرد بنا مرَّةً أخرى إلى الصحيح والمنحول من كلام الإمام الذي جمعه الشريف الرضيُّ في "نهج البلاغة" وفزغ من جَمعِه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسةٍ أدبيةٍ ليست من أغراضنا الخاصَّةِ في التعريف بعبقرية الإمام..

فحسبنا أنَّ أسلوب الإمام معروف في بعض ما ثبت من رسائله وخطبه، وإنَّ طابع هذا الأسلوب شائع في الكتاب لا تقدح فيه كلمةٌ ظاهرةُ التلفيق هنا أو كلمةٌ ظاهرةُ الإقحام هناك، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعةِ أو اختلاف التفكير.

فنحن لا نخطئ أن نرى في هذه الخطب والرسائل والأمثال وحده تتصل حينًا وتنقطع حينًا، كالوحدةِ التي نراها بغير انقطاع في كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد ..

وهذه الوحدة وحدها مغنيةٌ لنا في تباين ثقافة الإمام، أو تذوُّق أسلوبه الذي لا تخطئ فيه مرَّةً جزالة البداوةِ وصقل الحاضرة وحسن البداهةِ وامتزاج الصناعة بالطبع الذي لا تكلف فيه.

ولا يتم القول في ثقافة الإمام عليٍّ رضي الله عنه، ما لم نتمِّمه بالقول في نصيبه من الثقافة العسكرية أو فنِّ الحرب، الذي هو مضمار الأول ومناط شهرته التي تبرر فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة. وكفاءة المناضل قبل كلِّ كفاءةٍ.

فجملةُ ما يقال في هذا الصَّدد، أنَّ فنَّ الإمام العسكريِّ هو فنُّ البطل المغوار الذي يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة وإذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه، وأنَّه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم، وكيف يحتال على عدوِّه بما يخلع قلبه ويفتُّ في عضده.

ومن حِيَله المشهور في توهين عزم عدوِّه، أنه أمر بعقر الجمل في الواقعة المعروفة باسمه، لأنه كان عَلَمَ القوم الذي كانوا يلتفُّون به ويثبتون بثبوته.

وهكذا كلُّه فنُّ البطل المغوار الذي يفرِّق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئةِ وتحريك الجيوش.

ولم يرد لنا من أنباء الإمام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار.

نعم؟ إنَّه كان يقسِّم جيشه إلى ميمنةٍ وميسرةٍ وقلب وطليعةٍ ومؤخرةٍ، وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفِّين على التخصيص..

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد، ومنها قوله: "إذا نزلتم لعدوٍّ أو نزل بكم،

فليكن معسكركم من قبل الأشراف وسفاح الجبال، أو أثناء الأنهار، كما يكون رداء ودونكم ردا. ولتكن مقاتلتكم من وجه واحدٍ أو اثنين، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب، لئلَّا يأتيكم العدوُّ من مكانِ مخافةٍ أو أَمن، واعلموا أنَّ مقدِّمةَ القوم عيونهم، وعيون المقدِّمة طلائعهم، وإيَّاكم والتفرُّق فإذا نزلتم فانزلوا جميعًا وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعًا، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفَّة -أي محيطة بكم- ولا تذوقوا النوم إلا غرارًا أو مضمضة".

ومنها قوله: "ولاتسر أول الليل، فإن الله جعله سكنًا وقدَّره مقامًا لا ظعنًا".

ومنها قوله للولاة: "إني سيرت جنودًا هي مارَّة بكم إن شاء الله وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كفِّ الأذى وصرف الشذى، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمَّتكم من معرَّة الجيش الآمن جوعة المضطرِّ لا يجد عنها مذهبًا إلى شعبه. فنكِّلوا من تناول منهم شيئًا ظلمًا عن ظلمهم وكفُّوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم".

وهذه وما هو من قبيلها، مناهج موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه إلى خطط التعبئة وقيادة الميدان.

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج في وقعه صفين، لم تكن الواقعة كلها إلَّا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة في أوقات متباعدة... كأنها ضرب آخر من ضروب فنِّ الحروب على طريقةِ الفارس المناضل والبطل المفرد.

فموقف المبارَزة أو في غمار الصفوف.

وخلاصة ذلك كلِّه، أنَّ ثقافة الإمام هي ثقافة العلم المفرد والقمة العليَّة بين الجماهير في كلِّ مقام...

وأنَّها هى ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله، يداوم بين القلم والسيف، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه. لأنه بالبأس زاهد في الدنيا مقبل على الله، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله.

فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه، وهو عالم يتلاقى في الدين والدنيا بحثه ونجواه .

****

openkandl.com

في بيته

خلاصة رأي الإمام في المرأة أنها "شرٌّ كلها... وشرّ ما فيها أنَّه لابدَّ منها".

كان يرى لها فضائل خاصةً تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجل وتحمد منه: "فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال الزهو، والجبن، والبخل..

فإذا كانت المرأة مزهوة لم تُمكِّن من نفسها، وإذا كانت بخيلةً حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانةً فَرِقَتْ من كل شيء يعرض لها"..

والإمام صائر إلى رأيه هذا في المرأة من كلتا طريقيه، وهما طريق الحكيم الذي ينظر إليها على سنة الحكمة القديمة، وطريق العابد الذي ينظر إليها على سنَّة العبادة في جميع العصور.

ولكنه لا رأي الحكيم ولا حسُّ العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه، وهى فطرة الفارس المطبوع في آداب الفروسية، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها.

فما انتقم قط من امرأةٍ لأنها أساءت إليه ولا غفل قط عن الوصيَّة بها في موطن يستدعي هذه الوصيةَ.

ومن أمثلة وصاياه في هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدوِّ بصفين، حيث يقول: لا تهيجوا النساء بأذى أن شتمن أعراضكم

وسببن أمراءكم، فإنهنَّ ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إنا كنَّا لنؤمر بالكفِّ عنهنَّ وإنهنَّ لمشركاتٌ، وإن كان الرجل ليتناول المرأةَ في الجاهليةِ بالقهر -أي الحجر- أو الهراوة فيعبر بها وعقبه من بعده"..

وقد كانت ميوله نحو المرأة القوية، كما يظهر من غير حادث واحد..

ومن ذاك صَبية السَّبي التي استولى عليها وبنى بها لساعتها وجعلها قسمةً من الخمس قبل تقسيمه..

فرأى بعض أصحابه في ذلك ما شكوه إلى النبيِّ عليه السلام من أجله وربَّما كان هذا سبب تحذيره منها في الغزوات خيفةً على الجيش من شواغلها فكان يقول لسراياه وجيوشه إذا شيعهَا: "اعزبوا عن النساء ما استطعتم" ويوصي في أمثال هذا المواطن باتنابها...

إلَّا أنَّه كان يرى على ما يظهر أن امرأةً تغني عن سائر النساء.

فلم يُعرف له هوى لامرأةٍ من نسائِه غير الهوى الذي اختصَّ به السيدة فاطمة رضي الله عنه كرامةً لمنزلتها عند أبيها.

وهو غير الهوى الذي تبعثه المرأةُ بمغريات جنسها كان جالسًا في أصحابه، فمرَّت بهم امرأة جميلة فرماها القوم بأبصارهم فقال رضي الله عنه: "أن أبصار هذه الفحول طوامح، وأن ذلك سبب هياجها... فإذا نظر أحدكم إلى امرأةٍ تعجبه قليلًا مس أهله .فإنَّما هي امرأةٌ كافرة".

وعلى الجملة يمكن أن يقال أن آراء الإمام في المرأةِ هي خلاصة الحكمة القديمة كلها في شأن النساء.

فهي شرٌّ لا بدَّ منه باتفاق آراءِ الأقدمين. سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا الى أمرأه بعين الدين من أبناء بني إسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية أو أئمَّة الإسلام لأنهم كانوا جميعًا يمزوجونها بالشهوات التي تثيرها عامدةً أو غير عامدةٍ ويلقون عليها تبعةَ الشرور التي تنمُّ عنها بمكيدتها أو على الرغم منها، ولم تتغير هذه النظرةُ بعض التغيُّر إلَّا في الأزمنةِ الحديثةِ التي نظرت في استقلال التبعات على أساس "الحرية الشخصية".. فحاسبت "فحاسبت المرأة بما تجنيه أوشكت أن تبالغ في تبرئتها من جناياتها فمن السهو عن الحقيقة، أن تتَّخذ آراء الأقدمين دليلًا على نصيبهم من الغبطةِ أو السكينة في حياتهم البيتية. لأننا خلقاء أن نحسبهم جميعًامن الأشقياء المعذَّبين في بيوتهم، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات.

وليس من اللازم في حياة الإمام خاصَّة أنَّ يستمدَّ آراءه في المرأة من حياته البيتية.

فقد كانت تجاربه في الحياة العامَّة مددًا لا ينفد لهذه الآراء التي شاعت بين الأقدمين... حتَّى أوشكت ألا تحتاج إلى تجربةٍ مكرَّرةٍ، وشاءت المقادير أن تنقضي حياه الإمام عليٍّ وللمرأة يدٌ في القضاء عليها، فكانت حياته الغالية مهر القطام التي قال فيها ابن أبي مياس المرادي:

ولم أر مهراَســــــــاقه ذو ســــــماحه

كمهـــر قطـــام مـــن فـــصيح وأعجـــم

ثلاثـــــه ألاف وعبـــــد وقينـــــة

وضرب عـــــلى بالحـــــسام المـــــسمَّمِ

فـــلا مهـــر أغـــلى مـــن عـــليٍّ وإن عـــلا

ولا فتـــك إلا دونـــه فتـــك بـــن ملجـــم[1]

والذي يجزم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلت من شكاةٍ لم يألفها الأزواج في زمانه، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله...

عاش مع فاطمةَ رضي الله عنها لا يقرن بها زوجةً أخرى.. حتى ماتت بعد موت النبيِّ عليه السلام بستةِ أشهر.. وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لا شكَّ فيها، فقد كان النبيُّ عليه السلام كما جاء في الأثر يغار لبناتِه غيرةً شديدةً، وروي عنه أنه قال وهو على المنبر مرَّةً: "إنَّ بني هاشم ابن المغيرةِ استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليًّا ابن أبي طالب، فلا آذَنُ، ثمَّ لا آذن، ثم لا آذنُ، إلا يريد عليّ بن أبي طالب أن يطلِّق ابنتي وينكح ابنتَهُمْ. فإنها بضعةٌ منِّي يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها".

وربَّما كان من وفائه لها غضبه لغضبها، فأحجم عن مبايعة أبيس بكر إلى ما بعد وفاتها على بعض الروايات. وهجره كما هجرته مدَّةَ حياتها. وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته الحسن الحسين ومحسن وأمُّ كلثوم وزينب، وماتت ولم تبلغ الثلاثين.

---

(١) الأبيات من الطويل.

وتزوَّج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف في عدهم المؤرخون، ويؤخذ من إحصائهم في "الرياض النضرة" لمحبِّ الطبري أنَّه رضي الله عنه وافر الحظ من الذرية، بقي منهم بعده كثيرون وكان على ما يفهم من خلائقه، ومن سيرته وأخباره، أبًا سمحًا يستريح الأبناء إلى عطفه، ويجترئون على مساجلته الرأيَ في أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام...

لما توجَّه طلحة والزبير نحو العراق، ومعهما السيدة عائشة رضي الله عنها جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له: "قد أمرتك فعصيتني، فَتُقْتَلُ غدًا بمعصيةٍ لا ناصر لك فيها". فسأله: "وما الذي أمرتني فعصيتك؟".

قال: "أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينةِ فيقْتل ولستَ بها، ثمَّ أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتَّى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كلِّ مصر... فإنهم لن يقطعوا أمرًا فأبيت.. ثمَّ أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتَّى يصطلحا.. فإن كان الفساد على يدَيْ غيرِكَ، فعصيتني في ذلك كلِّه!...

فلم يأنَفْ أن يساجله الرأيَ ليقنِعَه، وجعل يقول له: "أي بنيَّ، أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به، وأمَّا قولك لا تبايع حتى تأتي بيعةُ الأمصار فإنَّ الأمر أمر أهل المدينةِ وكرهنا أن يضيع هذا الأمر، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإنَّ ذلك كان وهنًا على أهل الإسلام، وأما قولك : اجلس في

بيتك فكيف لي بما قد لزمني؟ من تريدني؟ ... أتريد أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها ويقال دباب دباب... ليست هنا حتى يحل عرقبوها ثمَّ تخرج.. وإذا لم أنظر فيما لزمني من الأمر ويعينني، فمن ينظر فيه؟ فكفَّ عنك أي بنيَّ.

هذه معاملة "أخوَّةٍ" تستغرب في الأجيال الماضية التي كان للأبوَّة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق، ولا ينقضها أنه لطم الحسن يومًا لأنه ظن به تقصيرا في الدفاع عن عثمان... فتلك سورة الغضب في موقف من أندر المواقف التي لا يقاس عليها في سائر الأحوال.

وكان رضي الله عنه، يزهيه أن يحيط به أبناؤه في محافل الروع ومشاهد الزخرف...

فيخرج إليها وهم حافُّون به عن يمينه وشماله، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان.

واشتهر بالعطف على صغارهم كما اشتهر بمودَّة كبارهم. فكان أحبَّ شيءٍ إليه أن يداعبونهم، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بني كلب يخرج بها إلى المسجد ويسرُّه أن يسألها أصحابه: من أخوالك؟ فتجيب: "وه ..وه" محاكاةً لعواء الكلاب.

وكان يقول: "إنَّ للوالد على الولد حقًّا وإن للولد على الوالد حقًّا..فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كلِّ شيءٍ إلا معصية الله

سبحانه، وحقُّ الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن".

ومن إحسان التسمية، أنَّه همَّ بتسمية ابنه حربًا لأنه يرشح للجهاد وهو أشرف صناعته، لولا أن رسول الله سمَّاه الحسن، وهو أحسن... فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخويه الحسين والمحسن. وأتمَّ حقَّ أبنائه في إحسان أسمائهم فاختار لم أسماء النبي وأسلافه من الخلفاء: أبي بكر، وعمر، وعثمان.

أما معيشته في بيته بين زوجاته وأبنائه، فمعيشة الزهد والكفاف.. وأوجز ما يقال فيها أنَّه كان يتفق له أن يطحن لنفسه، وأن يأكل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته، وأن يلبس الرداء الذي يرعد فيه، وأن أحدًا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين...

وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا... فكان بيته نقيض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه.

obeikandl.com